«زهدي» ذات المعركة في ممارسته اليومية، وتجربته المتراكمة، في حدود حصاره الذي يحاول المصالحة بين عناصر اليومي والتاريخي. وإذا كانت كاتبة «الصبار» مدفوعة بـ «مركب إثم معين» أو بـ «أخلاق طهرانية»، قد أرادت أن تؤكد وحدة ووحدانية المعركة الفلسطينية، فإن هذه الوحدة لا تستقيم في معناها الموضوعي والصحيح إلا باختلاف أشكالها، فللمعركة أكثر من شكل، وأكثر من «مضمون»، واختلاف الأشكال يعود إلى تعقد واختلاف شروط حياة الإنسان الفلسطيني. أكثر من ذلك، إن المنطق الموضوعي لحياة عامل لصيق بتراب الوطن مثل «زهدي»، لا يمكن أن يلتقي في مدار شخصيته الروائية مع ثائر متوحد يعيش ضباب الشعارات. فالأول يعرف الوطن من الداخل والتجربة، والثاني يعرفه في الذاكرة وكلمات الكتب.

(ب) تستمر النقطة الثانية في قول النقطة الأولى، فالنص الروائي يقدم في علاقاته صورة الواقع، والصورة الروائية معرفة أو شكلٌ من المعرفة، وهذه المعرفة ليست برهاناً استدلالياً مباشراً لأن برهانها خفي في حركة العلاقات. مع ذلك فـ «سحر» لا تترك برهان النص في النص، ولا ترضى أن يكون البرهان خفياً، لذلك فإنها تقدم برهانها الذاتي في النص، ومن أجل ذلك تدفع بـ «الصغير باسل» إلى مسرح «الضمير» ليعيد إيضاح الأمور وقول الحقيقة، فيعلن أن أخاه قد غادر «مزرعة الوالد» منذ زمن والتحق بجموع العاملين في المصانع الاسرائيلية، ويعلن أن أخته «نوار» تحب «صالح» وأنها تزوره في السجن. ونسأل هنا: إذا كانت الرواية تخبر في علاقاتها عن تغيرات الوعي والواقع، فلماذا تدفع كاتبة الرواية باحدى شخصياتها إلى ساحة الإخبار والإعلان والتبسيط؟ أعتقد أن مثل هذا الموقف يمس بقول الرواية المضمر، وفنيّة الرواية هي قولها المضمر، إذ أن القول المضمر هو وضوح الرواية الحقيقي الذي لا يحتاج إلى إعلان أو برهان.

عندما لا يستطيع كاتب النص الروائي أن يحدّد المسافة بينه وبين الواقع الذي يكتبه، فمعنى ذلك أنه غير قادر موضوعيا على تحديد موقفه من هذا الواقع، أو لنقل إن هذا الموقف، في التباسه، يتحول إلى جملة مواقف لا تكمل بعضها بعضاً، بل تلغي بعضها بعضاً، لتشير في النهاية إلى أن الكاتب لم يزل يبحث عن موقف واضح من هذا الواقع، وبسبب هذا الموقف القلق المرهون بوعي يبحث عن ذاته، فإن الكاتب يمنح شخصياته سمة معينة، ثم يعود فيلغي هذه السمة ويستبدلها بأخرى، أي أن سلسلة المواقف التي تحكم علاقة الكاتب بالواقع، تعود فتعكس ذاتها على النص المكتوب، وتجعله جملة نصوص في نص واحد، وتجعل من الشخصية شخصيات في شخصية واحدة. لا تنطبق هذه الأطروحة، بالتأكيد، على جملة علاقات «الصبار»، إنما تمسّ، وبالتأكيد أيضاً، بعض علاقاتها، حينما لا «تدري» الكاتبة أن تحددّ علاقتها مع الشخصية التي ترسمها، لهذا يتداخل قول سحر المباشر مع قول «أسامة» حتى لا نستطيع أن نمايز بينهما:

– «هذه اليد. ملطخة بالدم. لكنها جسر الحرية في نهر الأحزان. وأنا حاليا أرفعها. أطلقها. جناح نسر يجرح حاجز الصوت بنصال حده». وصوتي هادر. لعلعة الكاتيوشا والتابالم. فلتهتز الأرض لوقع قدمي إذا مشيت. ولترقبني الأعين الغافلة إذا غفوت. فأنا